مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 203 إلى 226
العنوان: المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر وأثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي
المؤلف: توريرت مصطفى
Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162

المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر و أثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي.

Climate During the Late Paleolithic and Its Impact on the Formation of Dietary Patterns among Capsian Humans.

توريرت مصطفى.
mo.taourirt@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2026/03/22 ؛ تاريخ القبول:2026/05/21

الملخص:

اعتمد الإنسان القفصي خلال العصر الباليوليتي المتأخر على نمط غذائي متنوع ارتبط بطبيعة الموارد المتاحة في بيئته، حيث شكّل الصيد وجمع النباتات البرية والحبوب والقواقع أساس معيشته اليومية، مع تركيز واضح على استغلال الحيوانات الصغيرة والمتوسطة، وتعكس البقايا الأثرية المكتشفة بالمواقع القفصية هذا التنوع الغذائي الذي مثّل استراتيجية تكيفية لضمان الاستمرار في مواجهة التحولات البيئية.

وقد تأثر هذا النمط الغذائي بشكل مباشر بالتغيرات المناخية التي شهدتها مناطق شمال إفريقيا خلال هذه المرحلة، إذ عرف المناخ تقلبات حادة بين فترات باردة وجافة وأخرى أكثر اعتدالًا ورطوبة، ما انعكس على الغطاء النباتي وتوزيع الموارد الطبيعية، ففي بعض الفترات أدى تراجع الغطاء النباتي واتساع السهوب إلى تقلص الموارد الغذائية، بينما ساهمت الفترات الرطبة في تنوع النباتات والحيوانات ووفرة الموارد المائية.

ومن ثمّ، لعب المناخ دورًا حاسمًا في توجيه السلوك الاقتصادي والغذائي للإنسان القفصي، من خلال فرض أنماط استغلال متغيرة للموارد، الأمر الذي دفعه إلى تبني استراتيجية معيشية مرنة قائمة على التكيف مع إيقاع التغيرات المناخية، وهو ما مهّد تدريجيًا لظهور أنماط اقتصادية أكثر استقرارًا مثل الرعي.

الكلمات المفتاحية: العصر الباليوليتي المتأخر؛ المناخ؛ الحضارة القفصية؛ الانسان؛ التغذية.

Abstract: The Capsian human during the Late Paleolithic period relied on a diverse dietary pattern closely linked to the nature of the resources available in his environment. Hunting, gathering wild plants, cereals, and shellfish constituted the basis of his daily subsistence, with a marked reliance on the exploitation of small and medium-sized animals. Archaeological remains discovered at Capsian sites reflect this dietary diversity, which represented an adaptive strategy aimed at ensuring survival in the face of environmental changes.

This dietary pattern was directly influenced by the climatic changes that affected North Africa during this period, as the climate experienced sharp fluctuations between cold and dry phases and others that were more temperate and humid, which in turn impacted vegetation cover and the distribution of natural resources, during certain periods, the regression of vegetation and the expansion of steppe landscapes led to a reduction in food resources, whereas humid phases contributed to the diversification of flora and fauna as well as the abundance of water resources.

Consequently, climate played a decisive role in shaping the economic and dietary behavior of the Capsian human by imposing changing modes of resource exploitation, this prompted the adoption of a flexible subsistence strategy based on adaptation to climatic fluctuations, which gradually paved the way for the emergence of more stable economic practices such as pastoralism.

Keywords: Late Paleolithic; Climate; Capsian culture; Humans; Nutrition.

مقدمة:

يُعد نمط الغذاء من أهم الجوانب التي تعكس طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية للإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ، إذ ارتبط بشكل مباشر بالبيئة الطبيعية والموارد المتاحة. وقد تميز الإنسان القفصي، الذي عاش في منطقة شمال إفريقيا خلال نهاية العصر الحجري القديم الأعلى وبداية العصر الحجري المتأخر، بنمط غذائي متنوع قائم على الصيد وجمع الموارد الطبيعية، حيث اعتمد في معيشته على صيد الثدييات البرية والطيور، وجمع الحلزون وبيض النعام، إضافة إلى استغلال النباتات البرية والحبوب والأعشاب.

ولم يكن هذا التنوع الغذائي معزولًا عن الظروف البيئية والمناخية السائدة آنذاك، فقد شهدت منطقة شمال إفريقيا خلال نهاية عصر البلايستوسين وبداية الهولوسين تحولات مناخية مهمة تميزت بتعاقب فترات باردة وجافة وأخرى أكثر رطوبة واعتدالًا، خاصة بالمناطق الساحلية والشمالية. وقد انعكست هذه التغيرات بشكل مباشر على الغطاء النباتي وتوزيع الموارد الطبيعية، الأمر الذي دفع الإنسان القفصي إلى تبني استراتيجيات معيشية مرنة للتكيف مع وفرة الموارد أو ندرتها تبعًا للتقلبات المناخية والفصلية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة فهم العلاقة بين المناخ ونمط الغذاء لدى الإنسان القفصي، وإبراز مدى قدرة الإنسان القديم على التكيف مع بيئته المتغيرة، إضافة إلى تتبع المظاهر الأولى للتحول نحو أنماط معيشية أكثر استقرارًا. وانطلاقًا من ذلك، تطرح الدراسة الإشكالية الآتية: إلى أي مدى أثرت التغيرات المناخية خلال العصر الحجري القديم المتأخر في تشكيل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي؟ وهل ظل القفصيون مجرد جماعات قائمة على الصيد والجمع، أم أنهم عرفوا بدايات التحول نحو استراتيجيات اقتصادية أكثر انتظامًا كالتخزين أو الرعي الجزئي؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة محاور رئيسية؛ خُصص المحور الأول لدراسة المناخ السائد في شمال إفريقيا خلال نهاية البلايستوسين وبداية الهولوسين، مع إبراز أهم التغيرات المناخية التي شهدتها المنطقة، بينما تناول المحور الثاني الحضارة القفصية من حيث التسمية والإطار الزمني والجغرافي، إضافة إلى التعريف بإنسانها، أما المحور الثالث فقد خُصص لدراسة نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي اعتمادًا على البقايا الأثرية المكتشفة بالمواقع القفصية المختلفة.

واعتمدت الدراسة على مجموعة من المناهج العلمية المتكاملة، وفي مقدمتها المنهج التحليلي من خلال دراسة البقايا الحيوانية والنباتية وربطها بالظروف المناخية، إلى جانب المنهج الرسوبي-المناخي للكشف عن مؤشرات الفترات الرطبة والجافة، إضافة إلى المنهج الكمي الإحصائي الذي يساعد على تحليل نسب استهلاك الموارد الحيوانية والنباتية اعتمادًا على مؤشرات ذات دلالة علمية.

مناخ شمال إفريقيا خلال نهاية عصر البلايستوسين وبداية الهولوسين

المناخ مع نهاية عصر البلايستوسين الأعلى:

في حدود 15 ألف سنة قبل الميلاد وصلت الكتلة الجليدية القارية الأوربية "وورم Wurm" إلى جنوب البحر الأبيض المتوسط، حيث سادت البرودة معظم أنحاء شمال إفريقيا وبصفة خاصة المرتفعات (بن بوزيد، 2016)، أما الجنوب فقد شُكل عليه ضغط شبه استوائي كبير، أدى هذا الضغط إلى عدم ظهور

الرياح الموسمية الممطرة في الصحراء مما أسهم في ظهور الجفاف الكبير(Muzolini, 1985:13) وبالتالي تشكل العروق الرملية مثل العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير، ومع نهاية المرحلة الجليدية في أوروبا في حدود 12.000 قبل الحاضر ساد الجفاف الاستوائي وشبه الاستوائي في مناطق صحراوية واسعة، بينما ساد مناخ شبه جاف في المناطق الاستوائية، أما المناطق الساحلية فكانت تشهد مرحلة رطبة (Nicholson S.E, Flohn H, 1979: 295)، أين تمتعت الحضارة الايبيرومغربية بأفضل الظروف المناخية، حيث استمرت الرطوبة إلى غاية الألف الثامنة قبل الميلاد (بن بوزيد، 2016a).

تُظهر منطقة الهوقار بوضوح الانقطاع الذي حدث للفترة الرطبة العاترية مع نهاية البلاسيتوسين الأعلى وبداية مرحلة جافة صحراوية متزامنة في المناطق المنخفضة من الصحراء، وفي موقع تيهوداين الذي كان بحيرة في الفترة العاترية، وكذلك في الحدود الجنوبية للهوقار مثل عين قزام، حيث تشكلت الكثبان الرملية، بينما ساد التصحر بنسبة قليلة في المناطق الجبلية (Farbe, 2005: 463-466)، ولكن مع اختلاف حول الاطار الزمني للجفاف الذي انتهت به الحضارة العاترية، فالباحث فابر Fabre وضع بداية الجفاف ما بين 25 ألف و20 ألف ق.م (Farbe, 2005: 466)، بينما تحدد الباحثة Petit-Maire بداية تناقص الأمطار في جميع الأماكن ما بين 18.000 و16.000 ق.م، حيث جفت بحيرة تشاد كما غزت الرمال بحيرات شامشان في أدرار الموريتانية، وشهدت الصحراء الجزائرية جفافا قاسيا في حدود 16 ألف سنة ق.م (Hachid, 2000:162)، ولم يعد أي تواجد للإنسان في الصحراء، حيث تغيب الشواهد الأثرية والمخلفات الحضارية لهذه الفترة (Cornevin, 1982: 444).

قد يبدو لنا من الوهلة الاولى وجود تناقض في المعطيات الاثرية والمناخية التي تعطيها كل منطقة وأخرى، ولكن إذا ما ألقينا نظرة على خريطة التضاريس لشمال إفريقيا يتضح لنا الأمر، فسلاسل جبال الاطلس تمثل تقريبا حاجز بين شمال إفريقيا والصحراء، بحيث تحجب عن الصحراء التأثيرات المتوسطية، وتحجب التأثيرات الصحراوية عن الشمال، لذلك ففي الوقت الذي كانت فيه الصحراء تتعرض للجفاف القاسي كانت الحضارة الايبرومغربية مزدهرة في الشمال.

في ظل هذه التغيرات المناخية القاسية حدثت هجرة للإنسان إلى سواحل الاطلسي والبحر المتوسط، حيث كان المناخ جافا وباردا واستمر كذلك إلى غاية الألف العاشرة قبل الحاضر (Farbe, 2005: 466)، وبذلك كان للتغيرات المناخية دور على الانتشار الحضاري، فقد امتدت حضارة الحصى المشذبة والألدوانية

إلى الصحراء كما امتدت إليها الحضارة الأشولية، وحتى الموستيرية والعاترية بفعل هجرة السكان، وكذلك له دور في نمط معيشة الأقوام التي سكنت المنطقة.

المناخ خلال فترة الهولوسين:

بدأت أولى الإشارات الرطبة في شمال افريقيا منذ 12 آلف سنة ق.م، لكنها توسعت وعمت في كل المنطقة ما بين 12000-10000 ق.م، وظهرت البحيرات نتيجة عودة الأمطار، وعاد معها الانسان الذي استقر هذه المرة بكثافة في المناطق الشرقية والوسطى، وحتى في الصحراء لتزدهر حينها الحضارة القفصية في الشمال، ثم ظهور حضارات العصر الحجري الحديث في مناطق الهوقار والطاسيلي لاحقا، حيث تبرز مظاهرها خاصة في الفن الصخري والفخار المبكر.

هذا وتبين نتائج العديد من الباحثين أن شمال افريقيا قد مرت بفترات جافة وأخرى رطبة خلال فترة الهولوسين، ويمكن تقسيمها إلى الفترات المناخية التالية:

-**المرحلة الرطبة الكبرى للهولوسين**: عندما انتهى العصر الجليدي "الوورم" الذي يعد آخر عصر جليدي شهدته أوربا، انعكست الظروف المناخية بشكل إيجابي على شمال إفريقيا، وبالتالي أصبحت كل المناطق الافريقية مواتية للحياة، بما فيها الصحراء الكبرى، فقد سمح ضعف الجبهة القطبية في تزايد الرياح الموسمية المحملة بالأمطار في اتجاه الصحراء الوسطى والشمالية، فبعد آلاف السنين من الجفاف بدأت الأمطار الموسمية تعود للصحراء الكبرى (Barbara Barich, 1998: 25 ; Mary Anne Tafuri Et als,2006: 390)، فشهدت بذلك خلال 10 آلاف إلى غاية 5500 ق.م انقلابا في الواقع المناخي، وبالتالي على الوسط النباتي والحيواني والحضاري، خصوصا أنها بلغت معدلات التساقط حوالي 700 ملم، ومن نتائجها ظهور بحيرات ومستنقعات وأحواض وأدوية طوال السنة، كما شهدت هذه الفترة مناخا رطبا جدا وأحيانا بارد (وابل، 2014-2013: 20)، مما انعكس على البيئة مسببا غطاء نباتيا كثيفا بحيث أصبحت منطقة تلاقي الغطاء النباتي الاستوائي بالمتوسطي، وفي حدود 6500 ق.م كانت قمم الصحراء الوسطى مغطاة بالبلوط والجوز، البتولا، أما الهضاب فانتشرت الصنوبر الحلبي، وفي المناطق المنخفضة انتشرت الأكاسيا، الريحان، الزيزفون، وهذا راجع لتداعيات تراجع المناخ في أوربا، وذوبان الطبقات الثلجية بنسبة 50%(Muzzolini, 1985 ; Petit-Maire, 1989: 283).

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 203 إلى 226
العنوان: المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر وأثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي
Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: توريرت مصطفى

أما بالنسبة للشمال، فيمكن أن نأخذ دراسة "روبي" حول كهف كابتيلي بالأوراس كنموذج، إذ حددت عدة فترات مناخية، وَصَفَت الأولى منها بأنها باردة وجافة، تمتد ما بين 7855 ق.ح و6859 ق.ح، حيث كانت المرتفعات العالية خلال الألفيتين السادسة والخامسة ق. م، تتمتع بمناخ شديد البرودة، يتميز بتساقطات ثلجية طويلة وغزيرة، وتشير بقايا الفحم النباتي وحبوب اللقاح إلى انتشار أنواع شجرية ذات طابع شمالي بوريالي، وتتطلب كميات كبيرة من المياه (حوالي 1300 ملم سنويا)، وتتحمل البرودة القاسية، مثل البندق والزان والدردار والبيتولا.

وعلى ارتفاع يقارب 1500 متر، ساهم المناخ القاسي والرطب بالقرب من المجرى المائي في تكوين وسط بيئي ملائم لنمو شجرة الطقسوس (*Taxus baccata*)، أما على المنحدرات، فقد استقرت أنواع نباتية ذات طابع متوسطي، مثل الأرز، والبلوط، والرماد ضيق الأوراق (*Fraxinus oxyphylla*)، والعرعار، والسرو، والجوز، والزيتون البري(Roubet C, 2021: 161) .

وخلال الممتدة ما بين 6453 و5889 سنة قبل الحاضر، والتي تم الكشف عنها ضمن طبقة يبلغ سمكها 90 سم، تراجعت حدّة الظروف المناخية، ليحلّ محلّها مناخ رطب، وتؤكّد حبوب اللقاح وبقايا الفحم النباتي، التي كانت وفيرة ومحفوظة جيدًا، وجود غطاء نباتي متوسطي كثيف للغاية، يتكوّن من أنواع شجرية نادرة مثل الكستناء والصنوبر البحري (*Pinus pinaster*)، إلى جانب أنواع أكثر شيوعًا شكّلت تجمعات غابية من الطقسوس (في شكل جيوب بيئية) وغابات من البلوط، اختلطت بأشجار الرماد ثنائية الشكل (*Fraxinus xanthoxyloides*)، والفيلييريا، مرافقة للزعرور، وشجرة القطلب(*Arbutus unedo*) ، والكرمة البرية، واللبلاب، والأسفوديل، والقصب (Roubet C, 2021:162).

وقد مثّلت الأوساط التحت-غابية والمروج والمراتع مجموعة من النباتات العشبية (النجمية والنجيلية)، في حين وفّرت المناطق الجافة والصخرية تجمعات من نبات السرخس (*Polypodium vulgare*)الذي جُمع، كما جُمعت بكثرة سيقان السرخسيات (*Athyrium filix-femina*)على ضفاف المجرى المائي.

تم اكتشاف السلسلة الثالثة من الاستيطان، الممتدة بين 6453 و5889 سنة قبل الحاضر (4504–3940 قبل الميلاد)، ضمن طبقة رسوبية يبلغ سمكها 120 سم، وقد أسفرت عن كميات وفيرة من حبوب اللقاح وبقايا الفحم النباتي واللواحق النباتية الكبرى، وهي شواهد على بيئة غابية كثيفة، تهيمن عليها أشجار الأرز والرماد ثنائي الشكل والبلوط الأخضر، كما لوحظ تراجع في انتشار الطحالب والأشنات التي كانت تغطي الجدران الداخلية (Roubet C, 2021:162).

وقد أدّى اعتدال المناخ خلال فصل الصيف إلى وفرة في الإثمار، وهو ما تؤكده البقايا النباتية الكبيرة؛ ويمكن الافتراض أن الاستهلاك خارج الكهف كان أكبر من ذلك الذي تم داخله، ويتعلّق الأمر بعناقيد العنب البري، وبالثمار الحمراء لشجرة الطقسوس، وبثمار البلوط الحلو الأخضر (*Quercus ilex*)، ومن صنف (*ballota*) (Roubet C, 2021:163).

أما من حيث الاستقرار البشري خلال هذه الفترة فقد كان كبيرا، سواء في الشمال أو في الصحراء، خاصة على مستوى الأنهار والبحريات مثل بحيرة تيهوداين، تيقالمامين، سبخة ملالة، تين أوفادان، أين وجدت بقاياهم وهم من الصيادين، كما عرفوا صناعة الفخار، مما يوحي بأنهم كانوا مستقرين أو شبه مستقرين، كما تركوا تراثهم الفني على صخور الطاسيلي والهوقار، أما في الشمال فقد كانت الحضارة القفصية تشهد أزهى عصورها الحضارية سواء في الصناعة الحجرية أو العظمية، وبشكل خاص الجانب الفني (بن بوزيد، 2016).

-**المرحلة الجافة الكبرى**: في حدود 5000-4500 ق.م أثبتت الأبحاث في مواقع الطاسيلي وجود فترتين رطبتين مفصولتين خلال الهولوسين، تتوسطهما طبقة رملية غير سميكة "60 سم" ذات مناخ جاف، وتم تأريخهما بـ 5470 ق.م، و4860 ق.م، بحيث عثر على نباتات تصل إلى 75% دالة على مناخ جاف (وابل، 2013-2014: 24).

وفي هذه الفترة الجافة القصيرة تحول الصعيد المناخي من مناخ رطب ذي أمطار غزيرة إلى مناخ أقل تساقطا، وهي الفترة المعروفة حضاريا بمرحلة الصيادين واستقرار مجتمع "الرؤوس المستديرة" (Ferrah, 2002: 286; Muzzolini, 1985: 19; Tauveron, 1984-1986: 173)، ومن مخلفاته تناقص مستوى بعض البحيرات واختفاء بعضها، وتراجع نسبة الطمي في الأودية، وهجرة الجماعات البشرية إلى الشمال، حيث كانت المنطقة تتمتع بمناخ شبه جاف ورطب، وهذا ما توضحه الحلزونيات أو الرماديات المخلفة في مختلف المواقع.

- **المرحلة الرطبة النيوليتية**: أما ما بين 4500-2500 ق.م فقد شهدت شمال إفريقيا والصحراء الوسطى تزايد في نسبة الأمطار والمستنقعات المائية، واستمر المناخ الرطب والمعتدل على وتيرة شبه ثابتة إلى غاية 2700 ق.م، ثم بدأت الأمطار تتناقص مما أدى إلى ظهور الجفاف تدريجيا، كما بدأت مجتمعات "الرعاة" تغير نشاطها من الصيد البري والمائي إلى مزاولة أنشطة أخرى مثل الرعي والزراعة، وما يدل على ذلك كثرة الرسوم الصخرية التي تبين نوع الحيوانات المجسدة فيها، فقد تخلى الإنسان عن تجسيد الفيل والزرافة

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 203 إلى 226
العنوان: المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر وأثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي
Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: توريرت مصطفى

وفرس النهر ليعوضها بحيوانات مستأنسة (Muzzolini, 1985:19; Petit-Maire N; Simonin A, 1993:155).

وفي الشمال استنادا لموقع كابيتيلي دائما، فقد ميزه مناخ رطب وبارد في بدايته، ثم أصبح جافًا ودافئًا نسبيًا، وتمتد بين 3367–2465 ق.م، وقد تم الكشف عنها ضمن طبقة رسوبية بسماكة 20 سم، وتُستمد الخصائص المناخية لهذه المرحلة من مجموعة الأنواع الشجرية الممثلة في حبوب اللقاح ذات الطابع الشمالي البوريالي، ففي المرتفعات، احتاجت بعض هذه الأنواع إلى كميات كبيرة من المياه وتحملت برودة شديدة مثل الأرز، والزان، والبندق، والبتولا، والدردار، والألدر، أما الأنواع التي نمت على المنحدرات وعلى ضفاف وادي برباقة، فتنتمي إلى الطابع المتوسطي، وتتطلب درجات حرارة أقل من المعدلات الحالية كالطقسوس، والحور، والصنوبر البحري، والبلوط الأخضر، والخلنج، والقصب، وقد استُخدمت جميع هذه الأنواع للتدفئة والإنارة .(Roubet C. , 2021: 163)

كما جُمعت حزم من النباتات العشبية البرية (النجمية، والنجيلية، والصلبية)، وقُطعت كميات من السرخسيات وأعناقها لاستخدامها في إعداد الفرش، وضمان تغذية الجميع، وتخزين العلف، ومن خلال عمليات الإحصاء والوزن، أبرز الباحثون تنوع الموارد المجموعة ووفرتها (بمئات العينات) من الثمار التي جُمعت خلال الصيف؛ فمنها ما هو عصيري حامضي أو حلو (مثل العنب وثمر الطقسوس)، ومنها ما هو جاف ودقيقي (مثل الصنوبر، والبندق، والبلوط الحلو)، مما وفّر مصادر غذائية غنية بالطاقة والفيتامينات.

وقد تزامن انتهاء الترسيب مع تراجع واضح في الرطوبة وظهور مرحلة جافة ودافئة، ويُعدّ توقف التسربات الداخلية، وانقطاع الإمدادات المعدنية، وسقوط الصفائح الكلسية، مؤشرات على نهاية هذه المرحلة الرطبة، التي ترافقت مع مغادرة الجماعات الرعوية النيوليتية للموقع (Roubet C. , 2021:163).

وعلى العموم تميزت فترة نهاية العصر الحجري القديم المتأخر وبداية العصر الحجري الحديث بالرطوبة الكبيرة، مع تساقط وفير، وتخللتها فترات جافة، اختلفت شدتها ومدتها من منطقة لأخرى، وقد شهدت كل المناطق الرطوبة ما عدا المناطق القريبة من البحر المتوسط التي كانت تتأثر بمؤثرات متوسطية، وهذه الظروف الملائمة أدت إلى الاستقرار البشري الكثيف وانتشار الحياة الرعوية بشكل كبير، حيث ازدهرت الحضارة القفصية في الشمال وحضارة رعاة الأبقار في الطاسيلي والهوقار (بن بوزيد، 2016a: 281).

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 203 إلى 226
العنوان: المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر وأثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي
Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: توريرت مصطفى

اكتشاف الحضارة القفصية وأصل التسمية

تنتمي الحضارة القفصية إلى حضارات العصر الحجري القديم المتأخر (Épipaléolithique) في شمال إفريقيا، وتُعد مثالًا مميزًا على تنوّع النماذج الثقافية في تلك الحقبة، سُمّيت نسبةً إلى المدينة القديمة قفصة (Capsa) في تونس (Naanaa, 2012: 10)، وتتخذ المواقع القفصية شكل تلال من الرماد المختلطة بالحجارة المحروقة، وبأدوات صوانية وأصداف قواقع أرضية، ومن هنا جاءت تسميتها الشائعة بـ "الحلزونيات (Escargotières)"، وأصل هذه التسمية يعود إلى الباحث لاتابي (Latapie) الذي استخدمها سنة 1909 عند دراسته لمواقع قفصية تحتوي على أكوام من القواقع، وما يلفت الانتباه أولًا عند زيارة هذه المواقع هو وفرة الرماد المختلط بالحجارة (Hadjouis, 2003: 44)، هذه الأخيرة كانت تستخدم لغلي السوائل عليها من أجل طهي هذه الحلزونيات.

يرجع الفضل للباحث ديمورقان De Morgan في اكتشاف ودراسة الموقع الأثري النموذجي بقفصة سنة 1909م، وذلك في مؤلفه الشهير "الحضارات الأولى" (Morgan, 1909)، حيث قام هو والدكتور كابيتان Capitan بتسمية الرماديات التي احتوت على البقايا الأثرية بالحضارة القفصية، حيث اعتقد ديمورقان أنها تنتمي إلى حضارات الباليوليتي الأعلى وبالتحديد إلى الحضارة الأريغناسية أو إلى الحضارة البيرغوردية في أوربا (Rahmani, 2004: 348)، وشاطر الباحث ريقاس Reygasse هذا الرأي مشيدا بالتشابه الكبير في المحتوى الأثري للحضارة القفصية مع هاتين الحضارتين وانتسابها إلى حضارات الباليوليتي الأعلى، حيث طلب بحذف تسمية القفصة(Reygasse, 1917-1918) .

وفي سنة 1910م، بدأت أولى منشورات الطبيب جوبير E. G. Gobert حول الحضارة القفصية بالظهور، كان جوبير طبيبًا وباحثًا في عصور ما قبل التاريخ والإثنوغرافيًا، وواصل عمله حتى ستينيات القرن الماضي، مركزًا أبحاثه على المراحل الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ في بلاد المغرب، انطلاقًا من أعمال ميدانية أجراها بنفسه في تونس (Gobert, 1910; Gobert, 1914; Belhouchet, 2021: VII).

وبعد القيام بأبحاث وتنقيبات جديدة عُثر من خلالها على أدوات قزمية، فرأى كل من الباحثان فوفري R. Vaufrey وجوبير G. Gobert بتأكيد التسمية ونشرها في الأوساط العلمية كحضارة تتميز بها الجنوب الغربي التونسي والشرق الجزائري (Gobert & Vaufrey, 1950).

مو اقع انتشارها:

لقد أجرى بالو Balout دراسة إحصائية للمواقع القفصية في شمال إفريقيا وقدم الأرقام التالية؛ تونس 11موقعًا، المغرب الأقصى 38، الجزائر 99 في الشمال وفي الصحراء الجزائرية نجد 36 موقعا، وفي موريتانيا 14 موقعا (Balout, 1967: 17)، ومن أهم مواقع تونس نذكر الموقع النموذجي قفصة والقصرين وسيدي بوزيد والرديف عين زنوش، أبري 402، وفريانة والمتلوي وأم العرائس والقطار وعين مترشم وعين سندس وبئر حمايرية وبئر أم علي، ويلاحظ أنها لم تنتشر شرق تونس (Belhouchet, 2021)، أما في ليبيا فيشير ماك بيرني إلى وجود آثار الحضارة القفصية في الطبقة العاشرة من موقع هوافتيح، ويعود تاريخها إلى 9000 و7000 سنة قبل الميلاد، وتتناقض أدواتها كلما غصنا داخل الموقع، حيث توجد أدوات الحضارة الايبيرومغربية في أساسها، ونفس النتائج أعطتها بعثة كامبريدج وفقا لتحاليل كاربون 14، كما اختلطت في هذا الموقع الصناعة الحجرية القفصية بالصناعة العظمية وقشور بيض النعام(Burney, 1967) .

أما في الجزائر، فنذكر موقع واد جبانة وقلعة المحاد وعين الذكارة وارفانة بتبسة، كما كان التجمع السكاني القفصي كثيفًا في مناطق الشريعة، وتليجين، ورأس العش، إذ تغطي هذه المناطق مساحة تُقدّر بـ 2000كلم²، وقد تم مراجعة أو اكتشاف 233 موقعًا أثريًا فيها (Grebenart, 1972: 37).

ومع تطور الأبحاث الأثرية، تم تحديد وجود الحضارة القفصية بعيدًا عن مركزها الأولي: نحو الغرب، إلا أنها لم تتجاوز حدود تيارت، ويُعزى الفضل في التعرّف على وجود الحضارة القفصية في منطقة تيارت أساسًا إلى أعمال كادنة Cadenat فقد تم رصدها أولًا في ثلاث محطات هي: كوبيتوس (Cubitus)، كاف طوراد (Kef-Torad)، وعين شريطة (Aïn-Chérita)، ثم لاحقًا في كوليمناطة، كما يُعتقد أن موقع عين كَيدا (Aïn-Keda)، الذي قام R. de Bayle des Hermens بالتنقيب فيه، ينتمي أيضًا إلى الحضارة القفصية (Fadel, 2012: 5)، ويُعتقد بوجودها حول منطقة الحضنة، حيث اكتشفت عدة مكبات لأصداف الحلزونيات، أما جبال الأوراس، فيبدو أنها لم تكن مأهولة بالسكان القفصيين، وقد أشار بالو إلى انتشار القفصي بين نقرين وبسكرة، وأكدت ذلك رحماني خاصة موقعي مرموطة والرباح (Rahmani, 2004: 355)، وواد بوسعادة وحاسي المويلح وعين الناقة قرب مسعد، وبفضل أعمال بوبو Bobo ومورال Morel، تم التعرف على نمط مميّز من الحضارة القفصية في منطقة وادي سوف (Morel, 1978: 335-372; Morel, 1953: 109-113).

كما انتشرت أيضا في الهضاب العليا السطايفية والسهول القسنطينية، مثل المجاز 2 وعين بوشريط وتينار، العلمة بسطيف وكدية كيفان بعين مليلة، ويلاحظ من خلال هذه المواقع تمركزها في وسط غربي تونس وشرق الجزائر حتى تيارت، كما توغلت لمنطقة شمال الصحراء ويتضح ذلك في مجموعة من المواقع

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 203 إلى 226
العنوان: المناخ خلال العصر الحجري القديم المتأخر وأثره في تشكّل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي
Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: توريرت مصطفى

في تقرت ووادي سوف، التي تؤرخ بحوالي 6650 ق.م، وموقع الحجار بورقلة ويؤرخ بحوالي 5350 ق.م (Bruel H; Dr Clergean, 1931: 53-54).

انسان الحضارة القفصية: يعرف انسان هذه الحضارة بما قبل المتوسطي Protoméditerranéen، ظهر هذا النوع في حدود الألف الثامنة قبل الميلاد، وهو ينتمي إلى سلالة الانسان العاقل العاقل في بلاد المغرب القديم، حيث وجدت مجموعات على شبه كبير به من الناحية الإناسية في نفس الفترة، أو قبيلها في المشرق وهم النطوفيون بفلسطين، وفي مختلف البلدان المتوسطية، وهي تنحدر فيما يبدو من نوع "كومب كابل Compe-Capelle"، الذي كان يقيم في وسط قارة أوربا ويعرف أيضا بإنسان برنو Brno، وله مميزات مختلفة عن إنسان كرومانيون (كامبس، 2010: 77)، فمنذ أن اطّلع فالوا (Vallois) على هيكل عين مترشّم، والهياكل البشرية المدفونة مع الحلزونيات والتي لا تنتمي إلى سلالة مشتى أفالو، طلب حينها فحص المجموعات القفصية المحفوظة في مخابر متحف الباردو، ولاحظ بذلك التشابه الكبير في الصفات المورفولوجية بين هذه المستحاثات (Vallois, 1980: 102-104).

واقترح فالوا تسمية هذا النمط البشري الجديد بـ" فجر المتوسطي أو ما قبل المتوسطي"، ومع ذلك، لم يُحسم الجدل إلا في سبعينيات القرن الماضي، إثر اكتشاف هياكل عين دكّارة، فقد أدّى التحليل الأنثروبولوجي لهذه البقايا إلى تحديد السمات التشخيصية لنمط ما قبل المتوسطي، وهكذا جرى التعرف على مجموعة بشرية جديدة باعتبارها صانعة الثقافة القفصية.

وقد انتشر انسان فجر المتوسطي في وسط غرب تونس وشرق الجزائر وهو صاحب الحضارة القفصية، ثاني وآخر حضارات العصر الحجري القديم المتأخر في شمال إفريقيا، إذ نجد أهم مواقع استقرار فجر المتوسطيين في الجزء الشرقي من الأطلس التلي؛ ومن أمثلته إنسان عين دكّارة (وهو النموذج البشري المميز للثقافة القفصية)، وكذلك مواقع عين مترشم، خنق الموحاد، مجاز I ومجازII (Roubet C. , 2006: 444).

وفي هذه الفترة عرف انسان مشتى العربي الخشن تراجعا تدريجيا خلال نهاية العصر الباليوليتي المتأخر وبداية العصر النيوليتي، والمتزامن مع انتشار نوع الفجر متوسطي، فخلال الألفية الرابعة قبل الميلاد يتراجع نوع مشتى أفالو ليكثر نوع الفجر متوسطي النحيف، كما نميز امتزاج سلالة القفصيين ومشتى العربي خلال فترة النيوليتي القفصي، خاصة في موقع المجاز 2، أين عاش مشتى العربي بالقرب من الانسان القفصي (Roubet C. , 2006: 442)

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162

حيث كشف موقع مجاز II عن بقايا بشرية تعود إلى الألفية التاسعة قبل الميلاد وبالتحديد 300 ± 8480 سنة قبل الحاضر، ويتعلق الأمر بأفراد من نوعي مشتى أفالو وفجر المتوسطي مجتمعين في دفن واحد بالموقع، منها هيكل يعود لامرأة (رمز لها بـH4) تبلغ نحو 35 عامًا، تنتمي إلى المشتويين النحيفين mechtoïde) (gracile، تظهر عليها علامات شيخوخة بسيطة مع عدم بتر الأسنان، وُجد هذا الهيكل في وضعية جانبية منحنية، وفق طقوس الإيبيرومغربيين، وكانت H4 تتشارك الدفن مع أشخاص بالغين آخرين؛ رجلان (H1 وH3) وامرأة واحدة (H2)، جميعهم من نوع ما قبل المتوسطي، بالإضافة إلى سبعة هياكل أطفال حديث الولادة، وبقايا متشابكة لثلاثة بالغين وطفل واحد .(Camps-Fabrer, 1975)

نستنتج في الأخير أن المنطقة الشرقية استوطن بها الأفراد الفجر متوسطيين إلى جانب المشتويين من نوع أفالو بورمال المتطورين الذين كانوا موجودين سابقًا، مما أتاح لهم فرصة التعايش مع بعضهما البعض، والعيش يوميًا في نفس المواقع، ثم الاختلاط السكاني والمزج، ويؤكد ذلك دفن الأفراد في الرماديات التي تعود إلى قبل منتصف الهولوسين، بعض الأفراد المشتويين استمروا في الدفن بوضعية منحنية، محافظين على الطقوس الجنائزية الإيبيرومغربية التقليدية.

ويمكن تبيان اتجاهين في ظاهرة النحافة النسبية بأنها ناتجة عن طريق؛ تراجع الصفات الأصلية غير المتناغمة في المشتويين، وفقدان الصفات الأصلية الرشيقة لدى الفجر متوسطيين، وهذان الاتجاهان يمثلان جانبين من التطور المورفولوجي الناتج عن اختلاط الكائنين البشريين آنذاك، ويظهران خلال المرحلة النيوليتية المبكرة، وبالمعنى الواسع، فإن الاختلاط السكاني ساهم في اكتساب بعض النحافة عند المشتويين، وفي فقدانها لدى ما قبل متوسطيين (Roubet C. , 2006: 445-446).

أثر المناخ في تغذية الانسان القفصي:

رأينا سابقًا أن الظروف المناخية التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا خلال الفترة القفصية ساهمت في توفير بيئة ملائمة نسبيًا لاستقرار الجماعات البشرية، خاصة خلال الفترات الرطبة من الهولوسين المبكر. وقد انعكس ذلك على طبيعة النشاط الاقتصادي للقفصيين، الذين اعتمدوا أساسًا على الصيد والجمع، مع وجود مؤشرات أولية على ممارسة بعض أشكال الرعي والزراعة البدائية. وتُظهر المعطيات الأثرية المستخرجة من المواقع القفصية أن نمط الغذاء لم يكن عشوائيًا، بل ارتبط بشكل مباشر بطبيعة الموارد المتاحة والتقلبات البيئية الموسمية.

الحلزون ودلالته الغذائية والاقتصادية عند القفصيين

تُعدّ الحلزونيات من أبرز العناصر الغذائية التي ميّزت النظام الغذائي القفصي، حيث كشفت التنقيبات الأثرية في مواقع الجنوب القسنطيني والجنوب التونسي عن تراكمات ضخمة من القواقع المختلطة بالرماد والحجارة المحروقة وبقايا الفحم، وهي التوضعات التي عُرفت باسم "الرماديات" أو "الحلزونيات". وتمثل هذه البقايا ما يقارب 40٪ من مجموع المكتشفات الأثرية، الأمر الذي يدل على أن الحلزون لم يكن موردًا غذائيًا ثانويًا، بل شكّل عنصرًا أساسيًا في الاقتصاد الغذائي القفصي، خاصة خلال الفترات التي تقل فيها الموارد الحيوانية الكبرى.

وتؤكد بعض المواقع الأثرية ضخامة هذا الاستغلال؛ ففي موقع الماء الأبيض جنوب تبسة عُثر على ما يقارب 200 م³ من الأصداف، أي ما يعادل نحو 75 إلى 80 مليون قوقعة، بينما احتوت كومة خنقة الموحاد القريبة من الحدود التونسية على حوالي 3000 م³ من الأصداف، بما يعادل أكثر من 300 مليون قوقعة. وتعكس هذه الكميات الضخمة استغلالًا مكثفًا ومنظمًا للحلزونات، مما يشير إلى وجود استراتيجية غذائية قائمة على تأمين مورد ثابت وسهل الجمع نسبيًا، خاصة في ظل التذبذبات المناخية التي كانت تؤثر على وفرة الطرائد الكبرى. (Camps, 1974:168).

ومن بين أنواع الحلزون استهلاكا، تم العثور على بقايا لخمسة عشر نوعًا، أما الأنواع الأكثر شيوعا هي: Helicogena melanostoma، وOtala constantinae، وCryptomphalus aspersa، و Leucochroa candidissima، وCernuella sitifiensis، ويُلاحظ هيمنة النوع الأول في أغلب المواقع القفصية، وهو ما يمكن تفسيره بقدرته على التكيف مع الظروف البيئية المحلية وسهولة جمعه. كما أن القيمة الغذائية للحلزونات، الغنية بالبروتينات والفقيرة بالدهون (0.8 إلى 1٪)، تجعل منها مصدرًا مناسبًا للطاقة (حوالي 90 حريرة) في مجتمع يعتمد على النشاط الحركي والتنقل الموسمي .(Camps (G), Morel (J), 1986: 476)

ولا تكمن أهمية هذه البقايا في بعدها الغذائي فقط، بل تكشف أيضًا عن مستوى من التنظيم التقني والمعرفي لدى القفصيين. فقد لاحظ كامبس أن أغلب القواقع المكتشفة وُجدت سليمة وغير محترقة، مما يستبعد فرضية شويها المباشر فوق الجمر، ويرجح اعتماد طرق أكثر تعقيدًا مثل السلق باستعمال أوعية عضوية أو خشبية مع تسخين المياه بواسطة الحجارة الساخنة. ويعكس هذا السلوك قدرة الإنسان القفصي على تطوير تقنيات تتلاءم مع موارده المتاحة رغم غياب صناعة الفخار، كما يدل على معرفة

عملية بطرق الطهي والحفاظ على القيمة الغذائية للموارد المستهلكة (Camps (G), Morel (J), 1986: 476-477).

كما تشير الدراسات التي قام بها لوبال إلى أن استغلال المواقع القفصية كان غالبًا ذا طابع موسمي، حيث كانت الجماعات تستقر لفترات محددة ثم تغادرها بعد استنزاف الموارد المحلية أو تغير الظروف المناخية. ويبدو أن تراكم الرماديات والحلزونيات عبر فترات متعاقبة يعكس تكرار العودة إلى نفس المواقع، الأمر الذي يدل على وجود معرفة دقيقة بالمجال الطبيعي ودورات توفر الغذاء (Morel, 1974: 212-213). ومن ثمّ، يمكن اعتبار جمع الحلزون جزءًا من استراتيجية اقتصادية مرنة هدفت إلى ضمان الاستقرار الغذائي وتقليل مخاطر نقص الموارد الحيوانية خلال بعض الفصول، وعلى غرار أسلافهم المشتويون، كان القفصيون يجمعون النباتات والجذور والثمار البرّية الصالحة للأكل، ويعتمدون على الصيد وجمع المحار أو القواقع البرية، ويُكملون وجباتهم بـ الأغذية النباتية البرية (Brahimi, 1979: 58).

الحيوانات الفقارية ودلالاتها البيئية والغذائية

شكّلت الحيوانات الفقارية عنصرًا أساسيًا في النظام الغذائي القفصي، فقد عُثر داخل مكبات الحلزون على بقايا تعود إلى ما يقارب 28 نوعًا من الحيوانات، تنوعت بين المجترات والخيليات والطيور والقوارض واللواحم، وهو ما يعكس تنوع الأوساط البيئية التي استغلها الإنسان القفصي.

- **المجترات:** وتم العثور على: الهرتبيست أو العلند (نوع من الظباء العملاقة)، والثور البدائي، وغزال دوركاس، وغزال كوفييه(Gazella cuvieri) ، والمفلون (Ammotragus lervia)، والنوّ Gorgon taurinus) (prognu، وعدد نادر من الآيل البربري (Cervus elaphus barbarus).

- **الخيليات:** وجد نوع من الخيل الموريطاني (Equus mauritanicus) في بقايا طعام القفصيين.

- **اللواحم:** وجد عظام للضبع المرقط (Hyaena crocuta)، والأسد (Felis leo)، والقط البري الموريتاني Felis ocrata mauritanica)، وابن آوى (Canis anthus)، والثعلب الأطلسي(Vulpes vulpes atlantica) .

- **القوارض:** عثر على بقايا عظمية للقنفذ (Erinaceus algirus)، والجربوع (Jaculus)، والجربوع (Gerbillus shawi)، وأرنب الرأس الطيب (Lepus capensis kabilicus)، والنيص (Hystrix cristata).

- **الطيور:** مثل النعامة (Struthio camelus)، والحبارى الصغيرة (Otis tetrax)، والحجل البربري (Alectoris Barbara)، وطائر الكوروِيت (Curserius gallicus)، والكوروِيت الأشقر (C. cursor)، والنسر الملتحي ((Gypaetus barbatus.

- **الزواحف:** السلحفاة الموريطانية (Testudo mauritanica)، وكذلك (Lacerta sp.) وهي نوع من السحالي (Camps (G), Morel (J), 1986: 477).

وقد تم التعرف خلال الحفريات على بعض منها على غرار البقر والغزلان والأروية والأحصنة، ويعتبر الظبي النموذج الأكثر تواجدا في المواقع القفصية، بحيث تم الكشف عن بقاياه في 27 موقعا بشمال إفريقيا، ففي موقع مجاز 2 بسطيف على سبيل المثال تصل نسبة استهلاك الظبي 52% من مجموع العظام المكتشفة في الموقع، مع غياب عظام اللواحم والقوارض، أما في موقع الماء الأبيض بتبسة قدرت نسبة استهلاكه بـ 69% (Camps (G), Morel (J), 1986:477).

اعتقد الباحث مورال أن الإنسان القفصي مارس سلوكا انتقائيا خلال اصطياده لبعض الحيوانات التي أظهرت بقاياها العظمية حداثة سنها، ويرى الباحث في هذا الصدد أن هذا الانتقاء قد يكون بغرض الإبقاء على وفرة القطيع وذلك بالسماح له بالتكاثر، ويرى الباحث هيغز (E. Higgs) أن الاختيار المتعمد للحيوانات الفتية يعدّ دليلًا على تدجين هذا النوع، ويمكن دعم هذه الفرضية أيضًا بحقيقة أن جميع أجزاء الهيكل العظمي ممثَّلة في مكبات الحلزون، بما في ذلك الأضلاع وعظام الحوض، مما يدل على أن الحيوان كان يُقطَّع كاملًا في موقع السكن (Camps (G), Morel (J), 1986: 477-478)، بينما يرى الباحث لوبال أن كثرة بقايا الظباء في المواقع قد يكون أولا لوفرتها وثانيا لأنها أسهل للاصطياد مقارنتا مع غيرها من الحيوانات الآكلة للأعشاب الأخرى (Lubell, D., et al., 1982-1983: 60-143).

أما بقايا الثور الكبير (Bos primigenius)، فقد تم العثور عليها في اثنين وعشرين موقعًا قفصيًا. وفي موقع مجاز 2، شكّلت عظام البقريات بمختلف أنواعها، وهي: (Bos primigenius) و(Bos ibericus) و(Homoïoceras antiquus)، ما يزيد على 15٪ من إجمالي بقايا العظام المكتشفة.

في المقابل، تبدو بقايا الثور الصغير قليلة الظهور؛ إذ لم يُسجَّل وجوده إلا في ستة مواقع قفصية خلّفت آثارًا عظمية له، أمّا فيما يتعلق بالجاموس الكبير العتيق (Homoïoceras antiquus)، فيُعدّ نادرًا جدًا، حيث لم يتم التعرف عليه إلا في ثلاثة أو أربعة مواقع فقط، ومع ذلك، يُحتمل أن تكون بعض هذه البقايا قد اختلطت أحيانًا ببقايا الثور الكبير.

تمّ العثور على بقايا الخيليات، ولا سيما النوع القريب من الكواجا المعروف باسم الحصان الموريطاني (Equus mauritanicus)، في نحو عشرين موقعًا قفصيًا، غير أنّ توزّع هذه البقايا عبر المواقع لا يتسم

بالانتظام أو التوازن؛ إذ كشفت بعض المواقع عن كميات كبيرة من عظام هذا النوع، مثل موقع كوليمانطة (Columnata)بتيارت، في حين لم تُسفر مواقع أخرى إلا عن بقايا ضئيلة جدًا.

وبالنظر إلى أنّ الحصان الموريطاني قد سُجِّل في مختلف الأقاليم، من الساحل إلى أطراف الصحراء، فإنّ هذه التباينات لا يمكن تفسيرها إلا بعوامل بشرية، من قبيل الانتقاء المتعمّد لأنواع معينة من الطرائد أو التخصّص في تقنيات صيد محددة (Camps (G), Morel (J), 1986: 477-478).

يظهر الكبش الجبلي (*Ammotragus lervia*) تقريبًا بنفس تواتر الحصان الموريطاني، إذ تم التعرف على بقاياه في 17 موقعًا أثريًا، كما أن انتشاره لا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبيئات الجبلية فحسب؛ بل عُثر عليه في المناطق السهلية أيضًا، مثل مشتى العربي (Mechta el-Arbi) ومجاز وكوليمانطة، وكذلك في الرليلاي (Relilaï)والرديف(Redeyef) .

تعد الغزلان من أكثر الحيوانات حضورا بالمواقع القفصية، ولا سيما في المناطق السهبية، وتم العثور على بقاياها في 14 موقعًا قفصيا من أصل 35 موقعًا خضعت للفحص، وقد كشفت هذه البقايا عن وجود نوعين رئيسين، هما: غزال كوفييه (cuvieri Gazella) وغزال دوركاس (Gazella dorcas). ويبدو جليًا أن الإنسان في العصر الحجري القديم المتأخر كان يفضّل صيد الحيوانات العاشبة الكبيرة، نظرًا لما توفّره من كميات أكبر من اللحم مقابل جهد أقل، وفي المقابل، تثير ندرة بقايا الخنزير البري قدرا من الاستغراب، إذ لم يُعثر عليها إلا في أربع مواقع، ثلاثة منها تقع على حدود منطقة التل وهي: كوليمناطة، ومشتى العربي ومجاز 2، في حين يقع الموقع الرابع جنوبا، وهو الرديف بتونس، وندرة وجوده في هذه المواقع القفصية لا تُعزى إلى عوامل بيئية، بل بعوامل بشري، كأنماط الصيد أو تفضيلات الاستهلاك.

كما تجدر الإشارة إلى الأرانب، التي تم التعرف على بقاياه في نحو اثني عشر موقعا ضمن الحلزونيات، إضافة النيص والقنفذ، وفي المقابل، سجل حضور ضعيف لكل من ابن آوى والثعلب، أما السنوريات، فرغم قلة بقاياه من حيث العدد، فإنها تتسم بنوع ملحوظ من حيث الأنواع، إذ تشمل: الأسد، والفهد والنمر، والفهد الصياد والسيرفال، والوشق، فضلا عن القط البري (Camps (G), Morel (J), 1986: 478).

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التنوع الكبير في البقايا الحيوانية لا يمكن تفسيره فقط بعامل الوفرة الطبيعية، بل يرتبط أيضًا بسلوك بشري منظم يقوم على الانتقاء والتخطيط الغذائي. فوجود جميع أجزاء الهيكل العظمي في بعض المواقع يدل على أن عمليات الذبح والتقطيع كانت تتم في أماكن الاستقرار، مما يعكس تنظيمًا داخليًا للنشاط الاقتصادي داخل الجماعات القفصية.

ومن ثمّ، يمكن القول إن النظام الغذائي القفصي لم يكن مجرد انعكاس مباشر للبيئة، بل نتيجة تفاعل معقد بين المعطيات المناخية والاختيارات البشرية، حيث نجح الإنسان القفصي في تطوير استراتيجية مرنة تقوم على تنويع الموارد الحيوانية واستغلالها بشكل يضمن الاستمرارية والتكيف مع التغيرات البيئية.

الحيوانات الطائرة: لاحظ الباحثون غياب شبه كلي لبقايا عظام الحيوانات الطائرة، ومع ذلك، يُسجَّل استعمال واسع لبيض من قبل القفصيين في مختلف مجالات حياتهم اليومية، لا سيما في تشكيل الأواني وأدوات الزينة، غير أنّ الباحثة مرزوق تمكّنت من اكتشاف بعض أجزاء عظمية تعود لطائر النعام ضمن تراكمات عظمية مرتبطة بأنشطة الجزارة. وقد أظهرت المعاينة وجود آثار قطع واضحة على هذه العظام، ناتجة عن عمليات الذبح والمعالجة، مما يؤكد أنّ هذا الطائر كان يُستغل غذائيًا من قبل المجموعات البشرية القفصية .(Merzoug, S., Aet als, 2017: 377-412.)

كما تم التعرف على أنواع عديدة من الطيور، من بينها الحبارى، والحمام، والحجل، إضافة إلى بعض الطيور الجارحة مثل: الصقر، والحدأة، والبومة، ولم تقتصر أهمية هذه الطيور على كونها مصدرًا غذائيًا، بل اكتسبت قيمة إضافية لدى الإنسان القفصي؛ إذ أتاحت عظامها المجوفة إمكانية صناعة خرزات أنبوبية وأوعية أسطوانية صغيرة استُخدمت في حفظ مسحوق المغرة الحمراء أو الإثمد، كما حظي ريشها بأهمية خاصة، حيث استُعمل لأغراض الزينة.

وقد أظهرت **المقارنة بين بعض المواقع القفصية** -مثل **داموس الأحمر (Damous-el-Ahmar) في تبسة وكهف كابيليتي(Capelleti) في جبال الأوراس - تشابهًا كبيرًا في بقايا الطعام** المكتشفة في كليهما، حيث تم جمع أزيد من 12 ألف قطعة عظمية من مختلف الأنواع، وكانت الغالبية تخص بقايا الأغنام والماعز (Ovines et Caprines)، بنسبة تتراوح ما بين 70% إلى 80%، أي أنها كانت المصدر الحيواني الرئيسي للغذاء، أما الأقل تمثيلا فكانت الأبقار، ولكن تختلف حسب ستراتيغرافية الموقع، وتتراوح ما بين 7,3% إلى 24,7%، والغزلان والخنازير بنسبة 2,5%، في حين كانت الكلاب والسنوريات الصغيرة والأرانب نادرة جدا، وكثير من هذه البقايا كانت مرتبطة بقطع حجرية وأوانٍ فخارية، وهذا يعكس نشاط الإنسان في الموقع مثل التحضير للطعام وربما التخزين (Roubet, 1979:384-385).

ومن ذلك خلصت الباحثة **كريستيان روبيه (C. Roubet)** إلى أن **الإنسان القفصي كان يمارس الصيد في الغابات المحيطة بالموقع** وكذلك في **الهضاب والسهول القريبة**، وأنه **كان على الأرجح يربّي الماعز والأغنام في الوقت نفسه**، مما **ساهم في ظهور نمط من الحياة الرعوية** في جبال تبسة، أما **سكان الملاجئ**

الصخرية في داموس الأحمر، فيبدو أنهم كانوا **رعاة شبه رحّل**، يمتلكون **قطعانًا صغيرة من الأغنام والماعز المدجّن**، وكانوا **يعيشون على غرار الرعاة الأوراسيين في الألف الرابع قبل الميلاد**، إذ كانوا **يحتلون ملاجئهم الصخرية بشكل موسمي** على منحدرات الكهف الأحمر، ويقومون **بعد أمطار الربيع والخريف بجمع أعداد هائلة من الرخويات الأرضية (الحلزونات)** التي كانت **منتشرة بكثرة في تلك الموقع** (Camps-Fabrer (H), 1994: 2202; Roubet, 1979: 384)

وفي المجمل تضيف روبي أن المعلومات النوعية والكمية للفقاريات بموقع كابيليتي بالأوراس لا تقتصر على فهم ما كان يُؤكل، بل تمتد لتفسير أسلوب حياة الإنسان القفصي، والتركيز على الأنواع المدجنة والمستأنسة خاصة الماعز والأغنام، فذلك يعكس نظامًا رعويًا واضحًا، معتمدًا قبل منتصف الألفية الخامسة قبل الميلاد، مشكلا قاعدة اقتصادية وغذائية، فضلا عن وجود الفقاريات البرية الأخرى، مثل السلاحف والنعام، فكان عرضي أو زخرفي، ما يدعم فكرة الاعتماد الرعوي المستمر، وكان تركيز الانسان القفصي على الحيوانات الصغيرة في السن، أي ما دون سنتين ونصف يشير إلى اختيار موسمي ومدروس، هذا الاختيار يوضح فهم الإنسان لكيفية إدارة القطيع للحفاظ على استدامته. (Roubet, 1979 : 404)

ومن جهة أخرى، يتّضح أن هذا النظام الغذائي يشتمل أيضًا، وبشكل جلي منذ السلسلة الثانية من فترات الاستيطان في موقع كابيتيلي، على الرخويات، كما تدلّ على ذلك آلاف الأصداف السليمة، فوجود طبقات وأسطح ممتدة على مسافات طويلة، فضلًا عن أعداد هائلة من الشظايا الدقيقة للأصداف التي أُلقيت عمدًا في مكب النفايات، يوحي بوجود عادة منتظمة لجمعها، ويبدو أن هذه العملية كانت محلية وواسعة النطاق، وشملت على الأرجح موارد حيوانية ونباتية أخرى، ومع ذلك، فإن هذه المعطيات الكمية تبدو غير متوافقة مع فكرة الاستقرار الدائم.

في موقع عين مستحية، توصّل لوبيل إلى أنّ القفصيين كانوا جماعات صغيرة ذات نمط عيش رحلي، تتحرّك تنقّلاتها تبعًا لتعاقب الفصول وبحسب الفرص التي يوفّرها كل موقع في كل موسم، ويُفسَّر ذلك بتغيّر طبيعة الموارد الغذائية ووفرتها عبر السنة.

ففي السهل التبسي الأعلى، تكثر الحلزونات، ولا سيما الأنواع الكبيرة منها، مثل: (Otala constantinae) و(Cryptomphalus aspersa) و(Helicogena melanostoma)، خلال فصل الربيع، أمّا في فصل الصيف وبداية الخريف، فتظهر الأنواع الصغيرة، مثل(Leucochroa candidissima) : و(Cernuella sitifiensis)،

في حين تصبح الأنواع الكبيرة نادرة، وتكاد كلتا المجموعتين تختفيان خلال فصل الشتاء. (Lubell, D., et al., 1982-1983)

وهو الأمر نفسه في شمال إفريقيا كلها، ولم يكن القفصيون قادرين على زيادة إمكانيات الجمع بتحريك مواقعهم، خلال الأشهر الباردة، حيث تختفي العديد من اللافقاريات اللينة (يرقات، ديدان حرشفية، جراد...) مع اختفاء الحلزونات؛ وتختبئ سلحفاة موريتانيا، وتغادر الغزلان السهول غالبًا المغطاة بالثلوج في مواقع الماء الأبيض وشريعة إلى هوامش الكثبان الشرقية، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن القفصيين قد تركوا المنطقة، إذ كان بإمكانهم استبدال موارد الربيع والصيف (الحلزونات، اللافقاريات اللينة، السلاحف، المجترات المهاجرة، إلخ) بموارد أخرى مثل بذور وفواكه الخريف، الجذور في الشتاء، واللحم من الحيوانات المقيمة .(Camps (G), Morel (J), 198: 482-483)

على الرغم من أن المعلومات المستخلصة من الدراسات تبقى ناقصة بطبيعتها، إلا أن المعطيات التي جُمعت أثناء الحفريات الأثرية تُظهر بوضوح أن الإنسان القفصي خلال العصر الحجري القديم المتأخر قد أسّس اقتصاده على صيد الفقاريات وجمع الموارد الطبيعية، لقد كانت لحوم الفقاريات -على الأقل تلك التي عُثر على بقاياها في الطبقات الأثرية - لا تمثل سوى جزءٍ من مواردهم الغذائية، إذ لا يمكن أن تكون المصدر الوحيد لغذائهم اليومي، ومن المحتمل أن القفصيين كانوا يعيشون حياة مستقرة (شبه مستقرة) في بعض المناطق، كما يُحتمل أيضًا أن ضرورات الصيد وجمع الثمار قد فرضت على بعضهم القيام بتنقلات موسمية داخل مجال جغرافي محدد، وهو مجال لم تُحدَّد حدوده بدقة حتى الآن.

النباتات البقولية: يتّضح مما سبق أنّ الحلزونات، وبيض النعام وغيره من الطيور، فضلًا عن لحوم الحيوانات المصطادة أو المأسورة في الفخاخ، إلى جانب الأعشاب المختلفة، والنباتات البصلية، والبراعم، والثمار البرية، كانت توفّر جزءًا مهمًا من غذاء الإنسان القفصي.

غير أنّ المورد الغذائي الرئيسي كان، على الأرجح، يتمثّل في بذور النباتات البقولية، نظرًا لما تتميّز به من قابلية للحفظ والتخزين لفترات طويلة، وهو ما يمنحها أهمية خاصة في سياق نمط العيش القائم على التنقّل والتكيّف مع التغيّرات الموسمية

يلخص إيرو (J. Erroux) جملة النباتات البقولية البرية والنجيلية التي كان من الممكن أن يتغذى عليها القفصيون فيما يلي: نبات الثمام المنتفخ Panicum turgidum، وأنواعًا مختلفة من الدخن Pennisetum،

وكذلك Phalaris أي ما يعرف بشعير الفأر، وكذلك شعير الرمال Elymus، والذرة الرفيعة التي تعود أصول أصنافها المزروعة إلى إفريقيا. (Camps (G), Morel (J), 1986: 486)

أما القمح فليس نباتًا بريًا في شمال إفريقيا؛ لكن بالمقابل يوجد Hordeum spontaneum، أي الشعير البري، في قورينائية (Cyrenaïque)، وربما قام القفصيون بجمعه، ومن بين النباتات البقولية، يجدر التذكير بأن الفول والبازلاء البرية (Pisus elatius) والجلبان أو اللاثيروس (Lathyrus) تنمو طبيعيًا في أراضي المغرب الكبير، بالإضافة إلى Bunium incrassatum ويعرف حاليا في الأوساط الشعبية بالتارغودا، وهي من الفصيلة الخيمية، تمتلك درنات ذات قيمة غذائية معتبرة، ويمكن أن نضيف الخرشف البري وجذور نبات سكوليم الإسباني (Scolyme d'Espagne) (Camps (G), Morel (J), 1986: 480).

خاتمة: خلصت هذه الدراسة إلى أن التغيرات المناخية التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا خلال نهاية العصر الحجري القديم المتأخر وبداية الهولوسين لعبت دورًا حاسمًا في تشكيل نمط الغذاء لدى الإنسان القفصي وتوجيه أساليب عيشه. فقد فرضت التقلبات المناخية، بين فترات الجفاف والرطوبة، تغيرات واضحة في توزيع الموارد الطبيعية النباتية والحيوانية، الأمر الذي دفع القفصيين إلى تبني استراتيجيات غذائية مرنة قائمة على التكيف مع البيئة المحيطة.

وقد أظهرت المعطيات الأثرية أن النظام الغذائي القفصي لم يكن قائمًا على مورد واحد، بل اتسم بالتنوع والتوازن، من خلال الجمع بين الصيد وجمع النباتات البرية والقواقع وبيض النعام، وهو ما يعكس قدرة الإنسان القفصي على استغلال الموارد المتاحة بشكل منظم ومستدام. كما بينت الدراسة أن اختيار أنواع معينة من الحيوانات والاعتماد على موارد موسمية مختلفة يدل على مستوى متقدم من المعرفة البيئية والتخطيط في استغلال الغذاء.

ومن خلال تحليل العلاقة بين المناخ ونمط الغذاء، يتضح أن الإنسان القفصي لم يكن مجرد صياد وجامع بسيط، بل استطاع تطوير أساليب معيشية تتلاءم مع التحولات البيئية والمناخية، الأمر الذي ساهم تدريجيًا في ظهور أنماط أكثر استقرارًا، مثل الرعي وبعض الممارسات الأولية المرتبطة بتخزين الموارد واستغلال النباتات.

وعليه، يمكن التأكيد أن المناخ كان عاملًا أساسيًا في توجيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية للإنسان القفصي، وأن دراسة الغذاء تمثل مدخلًا مهمًا لفهم قدرة الإنسان القديم على التكيف مع بيئته وتحقيق نوع من الاستقرار في ظل الظروف الطبيعية المتغيرة.

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162

المراجع:

بن بوزيد لخضر (2016)، التغيرات المناخية في الصحراء الوسطى في عصر البلايستوسين (2.59 مليون سنة- 8000 سنة قبل الميلاد). ***مجلة الواحات للبحوث والدراسات***، مج 9، ع 2، الصفحات 1048-1025.

بن بوزيد لخضر (a2016)، التحولات المناخية في الصحراء الكبرى خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، ***مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية***، مج 2، ع 5.

كامبس غابريال. (2010). البربر، الذاكرة والهوية. الدار البيضاء، المغرب: دار إفريقيا.

وابل امحمد. (2014-2013). إنعكاس مرحلة المناخ الأمثل الأمثل على ثقافة المجتمعات في الصحراء الوسطى 7000 ق.م- 2500 ق.م، . كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران.

Balout, L. (1967). L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale. *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,*.

Belhouchet, L. (2021). Du Capsien chasseur au capsien pasteur, pour un modèle régional de Néolithisation. *Archaeopress Archaelogy*.

Brahimi, C. (1979). Initiation à la préhistoire de l'Algérie. Alger: S.N.E.D.

Bruel H; Dr Clergean. (1931). oeuf d'autruche gravé et peint et autres travaux paléolithiques du territoire des Oules Djellal (Sahra septentrional). *L'anthropologie* .

Burney. (1967). The Hawa Fteah (Cyeenauca) and the stone age of saouth east Mediterranean. London: Cambridge University presse.

Camps (G), (1974). Les Civilisations Anciennes dès L'Afrique du Nord et du Sahara. Paris: Edition Doin.

Camps (G), Morel (J). (1986). Alimentation. *Encyclopédie Berbère 4*.

Camps-Fabrer (H). (1975). Un gisement Capsien de faciès Sétifien. Medjez II, El-Eulma (Algérie). Paris: CNRS.

Camps-Fabrer (H). (1994). «Damous-el-Ahmar». *Encyclopédie Berbère, XIV*, pp. 2194-2203.

Cornevin. (1982). Les néolithiques du Sahara central et l'histoire générale de l'Afrique. B.S.B.F., T. 79, N° 10-12.

Fabre (J), (2005). Géologie du Sahara occidental et central,. Tervuren, Belgique: Royal Museum For Central Africa.

Fadel (L). (2012). Considérations anthropologiques sur les Capsiens, peuple épipaléolithique du Maghreb oriental, *Dialogue Méditerranéen*, n ° 3-4.

Ferrah (A), (2002). L'Algérie civilisation anciennes du Sahara (tadliss n'sahara). Alger: ed. A.N.E.P.

Grebenart. (1972). Le Capsien des régions de Tébessa et de l'Ouled Djellal. Algérie,. Travaux de laboratoire d'anthropologie et de préhistoire et d'ethnologie des pays de la Méditerranée occidentale.

Hachid. (2000). Le Tassili des ajjer, aux sources de l'Afrique 50 siècles avant les pyramide. Alger: edif.

Hauard (P); Petit (J). (1975). les Chasseurs -graveurs du Hoggar. Libyca, T. 13, pp. 133-170.

Lubell, D., et al. (1982-1983). The prehistoric cultural ecology of Capsian escargotières. Part II : Report on investigations conducted during 1976 in the Bahiret Télidjène, Tébessa Wilaya, Algeria. *Libyca* 30-31, pp. 60-143.

Merzoug, S., Aet als. (2017). L'escargotière de Medjez I (ElEulma, Algérie) : résultats préliminaires d'une opération archéologique pluridisciplinaire,. *Proceedings of the II Meeting of African Prehistory (Burgos, 15-16 April 2015)*, Burgos, pp. 377-412.

Morel (J). (1953). Le Capsien du Khanguet el Mouhâad. I. *Libyca* , pp. 103-119.

Morel (J). (1974). La faune de l'escargotière de Dra-Mta-el-Ma-el-Abiod (Sud-Algérien). Ce qu'elle nous apprend de l'alimentation et des conditions de vie des populations du Capsien supérieur. *L'Anthropologie* 78-2, pp. 299-320.

Morel (J). (1978). L'industrie lithique de l'escargotière de Dra-Mtael- Ma-el-Abiod dans le Sud-Est algérien. Sa composition. Son évolution,. *L'Anthropologie*, T°. 72, N° 2,.

Muzolini, A. (1985). Les climats au Sahara et sur ses bordures du pléistocène final a laride actuel. *Revue empuries*, N° 5.

Nicholson (S.E), Flohn (H). (1979). African Climatic Changes In Late Pleistocene And Holocene And the General Atmospheric Circulation Sea Level, Ice, And Climatic Change (Proceedings of the Canberra Symposium, December). p 295. *Iahs Publ*. N° 131.

Petit-Maire. (1989). L'anthropoclimatologie du passe a l'avenir de l'homme. *B.S.P.F*, T. 86, N° 10-12.

Petit-Maire (N); Simonin (A). (1993). Déserts, passe, present, futur. quaternaire, V. 4, N° 1.

Rahmani (N). (2003). Le Capsien typique et le Capsien supérieur : évolution ou contemporanéité ; les données technologiques. Bordeaux: Thèse de doctorat inédite, Université de Bordeaux I.

Rahmani (N). (2004). Nouvelle interprétation de la chronologie capsienne (Épipaléolithique du Maghreb). *Bulletin de la Société Préhistorique Française* 101, pp. 345-385.

Roubet. (C), (1979). Économie pastorale pré-agricole en Algérie orientale. Le Néolithique de tradition capsienne. Exemple : l'Aurès. Paris: Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique.

Roubet, (C). (2006). Les comportements de subsistance et symboliques des premiers pasteurs néolithiques du Maghreb Oriental Atlasique. *Comptes Rendus Palevol*.

Roubet, (C). (2021). Transhumances holocènes en Algérie : impact économique et social. *B.A.M*. N° 26, pp. 159-173.

Tauveron (R). (1984-1986). L'art pariétal des têtes rondes (problèmes de synchronisme chronologique), . *Libyca*, centre national d'etudes historiques, T. 32-34.

Vallois, H. (1980). La sépulture et la parure de l'Homme capsien d'Aïn Méterchem (Tunisie). *Bull Soc Préhist Fran* 77 (5), pp. 136-140.